# الرحلة البغدادية
# نـــــص في رســـــــــائـــل

قاسم محمد عباس

من بيوت بغداد التراثية

احدى ساحات بغداد

١٠

عبثُ كل تلك الكلمات التي وصفت بها الحديقة القتيلة، فلا يمكن أن يكون تعثرك برسائلي علاجا لحزنك على ما آلت إليه حياتنا هنا. أحياناً أفكر أن حياة العراقيين عموما ليست إلا رحيلاً وهجرات دونما هدف إلا الإبقاء على الحدود المقبولة من البقاء.

فأنا وأنت ومنذ أسبوع نتحدث عن المطر لديك وعن الحديقة المغدورة في البيت القديم هنا، أتساءل عن قيمة هذا الأمر بالنسبة للآخرين.. فالحديقة التي نتحدث عنها ليست سوى مجموعة أشجار وزهور وحشائش رافقتنا بضع سنوات، وتتأتى قيمة تلك الظلال والروائح والصباحات من عدم قدرتنا على نسيان ماضينا بالقرب منها. قد لا يكون الأمر على هذا النحو، لكنني افزع من فكرة أن لا خيار سوى هذه المدينة التي يتساقط وجودها يوماً بعد آخر.

عموما ربما أكون أنا نفسي أقف موقفا محبطا من المكان هنا، ولكنني احمل معي زمانا من المسرات والذكريات يتحرك كالزئبق وسط دوامة الظلام والترقب والموت، لم يعد لشيء من معنى بمجيء صباحات كهذه، فقد سبق فهمنا لصباحاتنا الماضية كاستخراج ليقظتنا من ليال صيفية عذبة، لكنها الآن لم تعد سوى ترقبات للطريق، صباحات صارت رعبا مليئا ببقايا انفجارات، فخوف الأمهات والزوجات لم يعد من ليل محفوف بطرقات الأبواب، أو أصوات سيارات الأمن كما كان يحدث وإنما من صباحات مرعبة تفتتح بانفجار هنا أو اغتيال هناك،في وجه صباح بوجوه أغمضت على أخاديد ودم متيبس.

ذكرت في رسالتك معنى: تعال، فمقامك في تلك الصحراء بلا معنى أو انك مهووس بمدينة من وهم.أفكر بأغنية قديمة وأنا اقرأ كلماتك، اضحك واشعر بالأسى على مسرات المراهقة التي اختصرناها بمعنى أن نرقص ونقتلع الأفراح من قلب الفقر والمدارس وليالي الصيف والبعوض،قلوب مضطربة بالحب والكتب والامتحانات. هل تتخيلين أنني أتذكر كل تلك الليالي الصيفية، نحن نعود بسيارة اللادا من المحيط نحو الاعظمية عابرين الجسر، ونسمات أول المساء تملأ صدورنا، وتعبثُ أكمام ملابسنا.كنت تجتهدين بعواطفك وأنت تمدين كفك من النافذة تغرفين من هواء النهر، وخلفك مصابيح ملونة تتلألأ من فضاء الكاظمية، أنت الجامعة بين لونين وفضاءين، كفك حد فاصل وجامع بين جنتين من ماء وأشجار ولون وتاريخ.

..أنني مخذول بمدينة من الخيال، ربما أكون قد خذلت نفسي قبل أن تخذلني المدينة، فلطالما نظرت إليها بعين العارف بأسرارها، كمن كنت اسوطها بمعارف وتواريخ، كنت دائما اختصرها بأطفال، فلم يكن من المجدي اليأس من مدينة طفلة. هل يتوجب أن امزج بين وجودها كخرائط حزينة وبين وجود من بقايا وجدران وحواجز وأسلاك وعيون مرتعبة، أحار من مزيج من اللامعقول والفوضى والجمال والشعر والجنون. يوم أمس ظننت أنني في مدينة أخرى... حينما كنت أتسوق بالقرب من محطة أبو أقلام... استوقفني مشهد وحيد لن يتكرر كل يوم... صدمني المشهد للوهلة الأولى.. لما اضطررت لشراء عصائر لوجبة السحور من إحدى المحال هناك، واجهة المكان المسور بسور من ألآس غطى على صورة فتيات ثلاث ببنطلونات الجينز يحلقن حول مائدة ملونة تحت ثريا من المصابيح، هززت رأسي محاولا إخفاء لمحة الحياة هذه عن وساوس المتربصين بحياة الناس هنا.

اللاابالية التي كانت تصدر عن الفتيات ألهمتني أملا جديدا، إن الحياة ستستمر على الرغم من مطحنة الموت، لم يكن بوسعي الخروج من بحر الضوء هناك بالقرب من الشارع الرئيسي للكرادة، لكنني تذكرت أن التوقيت الشتوي منَ علي بساعة أخرى اقضيها خارج البيت، حملت أكواب الكارتون المليئة بكوكتيل العصير، ووضعتها بهدوء في المقعد الأمامي للسيارة، ومسحة من الهدوء اجتاحت روحي لمرآى الفتيات بعد الساعة السابعة وهن يحلقن حول طاولة حمراء انتشرت فوقها كؤوس كبيرة ملآى بالفواكه والعصير. هل يمكن لصورة كهذه أن تتسبب بكل ذاك الهدوء؟

خلال مسيري نحو ساحة التحرير مرورا بمكتبات الباب الشرقي، تذكرت وصفك لهروباتك من الجامعة نحو مكتبات ساحة التحرير مع صديقاتك،بحثا عن معرفة معاكسة، وقررت أن احفظ لك كل تفصيل يمحو من عقلك صورة المكان، فأقول لك: ليس الموت من نصيب الوحوش والقتلة، إنما الموت الأبدي ليس إلا لاماكن مستعبدة ومهجورة كما رأيت المكان عند الغروب.

ليس بقدرة احد أن يبعث الروح بالمكان الذي مررت به وسط ذلك الظلام، ازدادت ظلمة نفسي، واختفى الهدوء، وغدت مشاعري بلا معنى، أو لم أجد في أحاسيسي معنى يمكن قوله في تلك اللحظات. آه من مدينة ميتة، آه من مكتبات مقهورة، آه من ساحة لجواد سليم بهذه العبودية، لم يكن النصب ولا ساحة التحرير إلا خرابة شاخصة حيث لا نجوم في السماء، لم أكن متأكدا من أن وجوداً أنا فيه، أم فناء في جحيم.

إنها مدينة قتيلة بالبؤس والخوف والقسوة.

وكما كنت قد طلبت مني، فقد خرجت اليوم مبكرا، كي أصور لك كتب الرحلات منها رحلتين عثرت عليهما في سوق السراي، أما الأخرى فقيل لي إنني سأجدها في مكتبة المتحف، ولكنني قبل ذلك وجدت أن ألبي بعض احتياجات البيت قبل الذهاب إلى المتحف، فقد أضعت أكثر من ساعة في ساحة بيروت حيث قطع الأمريكان الطريق المؤدي إلى الباب المعظم، بملابسهم المرقطة، وأحذيتهم الثقيلة، بعد أن ترجلوا من آلياتهم وراحو يرسلون نظراتهم من وراء نظاراتهم السود، كانت الموسيقى المنبعثة من أجهزة مذياع الراديو لمجموعة من السيارات عند إشارة المرور مزيجا من الأدعية وأغاني فيروز وإخبار البي بي سي، وجوه متغضنة متوعكة خارجة من ليلة مليئة بالظلام واللزوجة والسهر. انتظرنا نصف ساعة وأمامنا على الجانب الآخر من الطريق المؤدي إلى الباب المعظم آلية أمريكية أشبه بوحش يرتدي قفصا حديديا، لم نتبين لم يقطعون الطريق علينا كل هذا الوقت... ولم يكن بوسعي أن اصعد الرصيف ومن ثم العودة باتجاه معاكس فحركة مثل هذه في ظل هذا الزحام ستتسبب بفوضى كبيرة، احتشدنا وأرجلنا تهتز قلقا.. بينما اتخذ رجال المرور موقفا محايدا، أو إنهم وقفوا في نقاطهم دونما حراك، لا يعرفون ما الذي يتوجب فعله وهم يواجهون نظرات تذمر وانزعاج من وراء زجاج نوافذ السيارات، تعالت ضحكات من مجموعة أطفال كانوا في طريقهم إلى مدرستهم في باص مدرسة وقف إلى جنبي، ضحكات اخترقت الصورة وذكرتني إننا الآن في طريقنا نحو انعطافة الباب المعظم. نظرت إلى الأطفال فوجدتهم يتضاحكون غير عابئين بهذا الانتظار.

كنت أوزع نظراتي بين المقود ووجوه الأطفال في السيارة المجاورة. اطمأنت نفسي لمشهد الأطفال وهم يشطبون على حذري وترقبي وتوتري، فوجدت أن اخطط لإنجاز مشاويري قبل الذهاب إلى المتحف ومن ثم الجريدة، قنينة الغاز الفارغة في صندوق السيارة، لائحة طلبات التسوق لليوم في جيبي، الغاز بالقرب من محطة وقود المستنصرية، أما التسوق فمن سوق باب المعظم مرورا بكلية الآداب، إذن اصل إلى الجامعة المستنصرية ومن ثم أكمل طريقي نحو كلية الآداب في الباب المعظم... قفزت من مكاني عندما مزقت المشهد رشقة من رصاص مفاجئ خلف صراخا وفوضى كبيرين، صرخات الأطفال أفزعتني وهم ينزلون رؤوسهم أسفل النوافذ، أما السيارات فراحت تتقافز صاعدة الأرصفة وهي تختفي في أزقة قريبة، التفت إلى الخلف كان الطريق خلفي فارغا، استدرت وصعدت الرصيف لأسير في الاتجاه المعاكس..

تركت إشارة المرور خلفي تعج بتصادم المركبات، والجنود الأمريكان يلوحون بأيديهم ينهرون المارة والسيارات... لم يعد ممكنا الخروج مبكرا، كنت ألوم نفسي على بقائي في السرير حتى العاشرة صباحا.. اليوم تأكدت من أن نظرية أمي وزوجتي عن النهوض المبكر سخيفة وبلا معنى.. قررت أن اشتري الغاز من السوق السوداء واخلص، أما الخضار ووجبة الفطور لهذا اليوم فيمكن تدبر مكان آخر.. وجدت نفسي اقطع الطريق نحو زيونة تاركا ورائي طريقي اليومي.. رن تلفوني فكانت زوجتي في الطرف الآخر تسألني إن كنت وصلت محطة الوقود.. وقالت إنها سمعت انفجارا قريبا من البيت، طمأنتها واقفلت الخط.. وعدت أدراجي إلى البيت.

شعرت برغبة في أن كون في غرفتي أو في الجريدة... كيف يمكن الوصول إلى الجريدة البيت اقرب لي الآن.. وسيأتي وقت آخر لزيارة المتحف.

وصلت البيت كمن تحطمت على جسده مئات العصي... أدرت محرك مولدة الكهرباء، وجلست في الصالة أمام مبردة الهواء لدقائق. ثم استحممتُ وتمددت لدقائق ودفقات الهواء الرطب تلفح وجهي لم تسألني زوجتي عن الغاز أو الخضار، لكنني أخبرتها أن الأمريكان قطعوا الطريق، ويجب أن أكون في الجريدة.. ضحكت أمي من مشواري المبتور، وقالت ليذهب فؤاد إلى السوق القريبة.

ارتديت ثيابي وخرجت ثانية أفكر بالطريق الذي يتوجب أن اسلكه نحو المتحف أو الجريدة ؟

لم انجح عزيزتي في الوصول إلى مكتبة المتحف، لكنني وجدت فرصة للوصول إلى الجريدة،

كتبت إليك ردا مسهبا عن إجراءات بيع البيت، وأنت حرة في رفض أو قبول الفكرة، لكنني فقط ادعوك لان لا تكوني محافظة في قضية بيت العائلة وذكريات الآباء، والأجيال التي عاشت هناك، تاركة ذكرياتها على الجدران والأثاث وما شابه من هذا الكلام، لان الموضوع بمنتهى البساطة، نحن سجناء وعينا ونحن أطفال، وعذابنا الحقيقي هو تلك المسافة الفاصلة بين وعيك الآن ووعيك في ذلك البيت، اقدر بمحبة قصصك عن البيت، ولكنني أرى أن تعيدي النظر من هناك بتلك القصص التي تدغدغ تفكيرك ومشاعرك، فالموضوع في جوهره، البحث عن هوية، هوية بمعنى الانتماء إلى جماعة ما، الانتماء لمدينة أو بيت، مع أن فكرة زوال هذا التأثير يتكفل الزمن بتضييعه. لم يعد ما يهمك أو تصحين كل صباح على وقع محبته والحنين إليه، لم يعد لذلك أي تأثير على نظرتي للبيت، فهو مثل آلاف البيوت الأخرى، فعل الزمن فعله معها، وجددت روحه، وشيدت فوق ماضيه عمارات وبنايات وأسواق، أنت الآن طبعا تطبقين فمك على انزعاج من وصفي له، لكن الأمر على هذا النحو، أم لم اقل انك تبالغين وأنت واقعة تحت تأثير المسافة البعيدة بينك وبين حياتك فيه.

لم حياتك مرتبطة بحديقة يابسة، ومدخل من سلم معقوف لبيت بغدادي متهالك، فأنت مسجونة بالذكرى لا بالواقعة، حتى أنني أتخيلك ستشعرين بالقرف لحظة أن يقع بصرك على التغيرات التي حصلت حول البيت.

سأكتب لك لاحقا عن حقيقة مشاعري، بل وحتى ما افهمه من إصرارك على فكرة الانحياز للبيت على حساب موت حياة بأكملها.

أنا الآن في طريق العودة الظلام يلف ساحة التحرير، وكائنات جواد سليم بلا ملامح، ثمة سيارة للشرطة تختبئ تحت النصب، وكلاب وقطط تعبث بأكوام أزبال بالقرب من الحديقة، عدلت من وضع أقداح العصير، ورحت اقترب ببطء من كنيسة الباب الشرقي... قبيل النفق بخطوات وقف عسكريان يحملان السلاح، أوقفاني وطلبا أن أضيء داخل السيارة، وفتشا السيارة بكسل واضح، وطلبا مني أن لا أتأخر بعد هذا الوقت.. شكرتهما وواصلت السير نحو البيت.

# ثقافتنا: رهانات مغامرتها الخاصة

سعد محمد رحيم

هناك، في دوامة هذا التشوش والخراب الذي نعيشه، مؤشرات صحية قليلة، هي التي تمنحنا بعض الأمل، القليل منه، والذي هو ضروري أيضاً كي نستمر في البحث عن بصيص ضوء، كما يقال، علنا نعثر على سبيل خلاصنا. وأحسب أن أهم ما يمكن أن نفعله، الآن/ هنا، هو أن لا نكف عن النظر إلى حالنا ( تاريخاً وثقافة )، معرضين إياها لأقصى ما نستطيع من التمحيص والتقويم والتساؤل، أقصد النقد. على أن نتحمل بشجاعة، ومن دون مواربة أو نفاق، نتائج ما يتكشف لنا، لأننا إذا لم نعرف ونتعرف على أنفسنا ووضعنا وتاريخنا تحت الشمس فإننا ماضون قطعاً إلى الهاوية. وما أقصده في هذا المقام هو ببساطة الشروع بالنبش في حقلنا الثقافي. في منظومة ثقافتنا ( مفاهيمها وأنساقها )، في صيرورتها وتاريخها، أي مغامرتها في الزمان والمكان، مع التأكيد على، أو عدم نسيان ذلك السؤال الأبستمولوجي الخطير؛ ما الذي يعيق حقاً ثقافتنا من التفتح والنمو والإبداع؟. فالشرط الأبستمولوجي لأية معرفة هو في تأشير ما يعيق تفتحها ونموها. وحين نتكلم عن "معرفة" تخص نهضتنا إنتاجا وتداولاً وتفاعلاً وفعلاً في الواقع نجد سلسلة من عمليات إجهاض منظمة مورست ضدها وأعاقت تراكمها من قبل قوى وسلطات اجتماعية وسياسية، داخلية وخارجية، مباشرة وغير مباشرة ناهيك عن الإكراهات التي يمارسها الذهن نتيجة وجود عادات وآليات تفكير وقوالب مسبقة تشكل إعاقات ذاتية للفكر ويسميها علي حرب بـ "الممتنع" كي يفرقه عن "الممنوع" الذي هو جملة المعوقات الخارجية "سياسية واجتماعية" للفكر. وعموماً فإن إعاقة نمو المعرفة والحجر على حرية إنتاجها وتداولها، لا سيما في مرحلة التحديات التي يواجهها المجتمع ترجع إلى المحددات المرسومة للعقل في أن لا ينتهك حرمة منطقة واسعة تبقى مسكوتاً عنها، ويمنع دخولها والتساؤل حولها.

لم تستطع ثقافتنا المعاصرة أن تمضي بمغامرتها الخاصة، منذ عصر النهضة العربية، قبل أكثر من قرن، شوطاً أبعد، فقد ظل التردد والتحسب والخوف، وأكاد أقول الجبن سمات واضحة لمساحات واسعة من تلك الثقافة.. كانت هناك خشية من إثارة الأسئلة الصادمة التي تتحرش بالتابوات الموروثة، وكذلك المبتكرة حديثاً. وحتى إذا ما طرحت الأسئلة كانت الأجوبة تبقى قاصرة، مخاتلة، منافقة، تخشى دخول المساحات المحظورة، وتتجنب الخطر، فإحدى وظائف السؤال هي خلق التوتر بين الفكر والواقع، فالسؤال مواجهة وإعلان اتهام، واستجواب واستنطاق ومحاولة استشفاف للواقع من أجل الوصول إلى حكم تاريخي ( ربما، هو لا عقلانية هذا الواقع الذي نعيشه )..

إن ازدهار الثقافة لن يكون من غير مغامرة حقيقية تواجه خلالها الثقافة تاريخها، أي نفسها، بثقة وشجاعة، ولا تأبه للنتائج، ذلك أن النتائج حينئذ ستكون في صالحها حتماً.

بقيت سلطة ( النقل ) فاعلة داخل الفضاء الفكري العربي لقرون طويلة كابحة أي توجه عقلاني، نقدي وإبداعي، وبالتالي فإن فكر النهضة العربية كان رهانه الوحيد والصعب هو انتزاع السلطة من جهة التكرار وإعادة إنتاج القديم يوماً بعد آخر، ومنحها إلى جهة العقل والحداثة والإبداع، فهل نجح في هذا المسعى؟.

لم تفعل ثقافتنا، أو مساحات واسعة منها، في الأقل، ذلك بل اكتفت بالعموميات والصيغ الجاهزة، والثنائيات، وكره التفاصيل والإسهاب والحفر، أي كره التفكير المتأمل، المتعمق، الواسع المستديم.. إن هذا العالم المعقد المتشعب الغامض، والمملوء بالمجاهل والمناطق العذراء غير المستكشفة بعد، كان يختزل إلى بضع جمل مبسطة في الثقافة السائدة الرديئة.. جمل مخدرة، تمنح اطمئناناً كاذباً، ومعرفة شاحبة وفقيرة إلى حد مؤس، ورضاً متوهماً عن الذات، وانفعالات هائجة، معادية لكل ما هو خارجها، أي خارج تلك الذات. إن ثقافة كهذه لا يمكن أن تسترشد بالواقع وترشده وتتفاعل معه عبر ابتكارها لمناهج ومفاهيم وأفكار قادرة على الاستمرار المبدع ناهيك عن استحالة استيعابها لقيم المحبة والتسامح والعدالة والحرية.. وهي، عندئذ، وببساطة لا تقبل اللبس، ستكون غير إنسانية، وهنا موئل الخطورة، فهي بإخفاقها ذاك ستفقد بعدها الإنساني، وستسوغ العنف ضد الآخر/ المختلف حتى وإن كان هذا العنف سيفضي بالإضرار بمصالح متبنيها.. ستكون ثقافة جاحدة، مغلقة على نفسها، مكتفية بذاتها، تعتقد أنها الحقيقة المطلقة وما عداها مروق وكفر وضلال.. وبذا ستقول بالموت، الموت وحده، لأنه هو العتبة التي ستفضي، على وفق منطقها المعوج، إلى الخلاص، وهو خلاص، لاشك، يائس وموهوم.

تتجذر ثقافتنا في الماضي، لكنها لا تتمثله في روحه، لغياب المنهج النقدي، بل تفهمه مثل شيء هلامي، ساحر وخلاب، كما أطياف الحلم، تحاول استعادته من دون جدوى.. ثقافة لا شأن لها بالمستقبل، أي أن المستقبل ليس شاغلها الرئيس، إلا في ضوء تلك الرغبة والهواجس المستحيلة في أن تعيش، أو تتعايش مع تلك الأطياف مجدداً، وهذا ما يجعل من علاقتها بالحاضر هشة، في حقيقة الأمر، غير مبدعة، مخربة ، فلقد تحول الماضي إلى عبء بدل أن يتحول إلى قوة دافعة خلاقة.. إلى ذريعة للكسل والاطمئنان، وإلى انكفاء الإبداع والعطاء العلمي والثقافي، وانحسار قيمة العمل.

والآن، ما الذي يغذي الآخر؛ الوضع المتردي هو الذي يبقي الثقافة شاحبة تعاني من عقم مزمن، أم أن الثقافة الشاحبة العقيمة المهيمنة على العقول هي التي تدفع بدأب الوضع إلى التردي والانتكاس/ الوضع المتردي بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية المزرية والظالمة؟. لا شك في أننا إزاء حلقة مفرغة كتلك التي تعيد إنتاج الفقر في الدول المتخلفة، إذ تؤدي قلة الدخل إلى تراجع مستويات الطلب الفعال، وشحة الادخارات ومن ثم الهبوط في الاستثمار والإنتاج، وانتشار البطالة الذي يعني انخفاضاً جديداً في الدخل يفضي إلى تفاقم في الكساد الاقتصادي. وعلى الصعيد الثقافي تبدو الحلقة المفرغة أشد تعقيداً والتباساً، فها هنا نجد حلقات مفرغة صغرى تشكل سلسلة أو سلاسل متداخلة مشتبكة، تبعث على الأسى والاضطراب.

الثقافة هي حقل المعنى، حقل الانشغال باكتشاف وابتكار المعنى وإعادة إنتاجه. ولذلك فإن الثقافة هي شرط الإنسان للخروج من عدمية المملكة الحيوانية، وهي ضمانته ورهانه ليعقل حياته، ويكون كائناً حضارياً وتاريخياً، أي كائناً فاعلاً ومنفعلاً في الصيرورة الاجتماعية/ التاريخية. فالمعنى هو الاستدراك العقلاني للحياة/ حياة الكائن الإنساني.. إنه النسغ الواصل بين تلافيف الأشياء المحسوسة والمرئية والأشياء اللامحسوسة واللامرئية، بين الفكر والواقع، بين التاريخ والمجتمع، بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين معطيات وحقائق الواقع والمخيال.. إنه العلامة على وجود الإنسان في العالم، وامتياز هذا الوجود.. أن تستشف أو تحاول عناصر العالم الكثيفة بفوضاها وتتبين النظام الخفي في علاقاتها سياقاً وقوانين وغايات.. المعنى ليس مطلقاً، ليس جوهراً مستقلاً، وليس شيئاً موضوعياً تماماً، ليس سابقاً على الأشياء في وجوده وليس لاحقاً بعد التأسيس.. المعنى يتأسس ويتلبس الشيء المحسوس ليكون روحه، معنى الشيء لا يتأتى إلا من طريقة وجود هذا الشيء وعلاقته مع الأشياء الأخرى، ومع عقل الإنسان الذي يستشفه أو يبتكره ويشكله في نظام قول. والمعنى أخيراً ينتمي إلى الإنسان وتفكيره ورؤيته، وإلى تاريخ الإنسان، إلى تاريخ تجربته ومعرفته. فمن يحقق المعنى ويجسده هو الإنسان.. كل إنسان تشغله قضية المعنى هو الإنسان المثقف حصراً، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الإنسان الاعتيادي والإنسان المثقف، فالأخير هو من تشغله قضية المعنى على حد تعبير محمد أركون. والمثقف كائن في حضرة اللغة.. إنه من يُسكن العالم ( زماناً ومكاناً ) في اللغة، على أن تستحيل اللغة حاضنة للإبداع والإنتاج المعرفي، لا وسيلة ثرثرة وهراء، إذ علينا أن نفرق بين الدعي الثرثار المتحذلق والمثقف اللاعب الماهر في ساحة الفكر.

في أفق الحداثة يقف المثقف المعاصر. الحداثة بعدها مشروعاً مفتوحاً ومستمراً، يهيئ شروط انبثاق الإنسان المبدع وبزوغ حريته. فلا يزال وسيبقى معنى الوجود الإنساني كامناً في فكرة الحرية، الحرية التي من دونها لا نستطيع الحديث عن مشروع حداثة ونهضة، وعن الإنسان. وإذا كان آلان تورين يشير إلى ضرورة إعادة اللحمة بين الذات والحرية ( شذرتا الحداثة ) مع العقلانية، بعد أن انفصلت هذه الشذرات، بعضها عن بعض، في إطار الحداثة الغربية، فإننا في إطار نهضتنا المفترضة لم نعثر على، أو ننتج هذه الشذرات بعد.

لا ريب، في أن النهضة العربية بأسئلتها وبمنظومتها المعرفية المقترحة، سعت إلى زحزحة المنظومة التقليدية للفكر العربي طارحاً إشكاليات جديدة ومجترحاً وعياً مغايراً منطقته ووجهته التاريخ والذات والآخر. وفي هذا الخضم تواجهنا عديد من الأسئلة، منها؛ هل كرسنا حقاً مفاهيم الذات والحرية والعقل، هل جعلنا لأسئلتها الأسبقية على الأسئلة الأخرى؟. أم إننا تعاملنا معها بسطحية واستخفاف فانتُهكت الذات، وتلاشت الحرية وغاب العقل؟. إلى أي مدى يمكن الحديث عن الذات في استقلالها، وعن الآخر في انفصاله عنا واتصاله بنا؟. أهناك تماس بين لحظة الذات ولحظة الآخر، أهناك توازٍ؟. أم أن لحظة الآخر هي سابقة دائماً، ولحظة الذات تلهث على مبعدة مخيفة وراءها؟. ما هي رهاناتنا، حقاً، في عصر سمته التعولم والتحولات السريعة والتطور العلمي والمعرفي، وما يستتبع هذا كله من آمال وتحديات ومشكلات؟.

## مهرجان كوبنهاكن الدولي الرابع للسينما

# ابراز حداثة السينما الأوربية وتعتيم على السينما الأمريكية العجوز

كاظم صالح
كوبنهاكن

من الفائزين بجوائز المهرجان

حين يبتعد المهرجان السينمائي عن دائرة الترويج السياحي والتأثيرات السياسية يبرز الجانب الفني واضحا في نوعية الأفلام المختارة التي شاركت في مهرجان كوبنهاكن الدولي الرابع للسينما والذي ركز فيه على الأنتاجات الحديثة لمخرجي اوربا الشباب واظهار ماطرحوه من معالجات ورؤى حداثية لواقع المجتمعات الأوربية المعاصرة والكشف عن طاقات ومواهب واسماء جديدة سيكون لها شأنها في مستقبل السينما الأوروبية.

شارك في المهرجان نحو ١٤٥ فيلما غالبيتها انتاج اوروبي او بتمويل مشترك مع احدى الدول الأوربية. عُرض ١٣٥ فيلما روائيا طويلا من بينها الفلم العراقي احلام والفلم الجزائري بركات على هامش المهرجان فيما ضمت المسابقة الرسمية عشرة افلام اوربية هي: الفيلم السويدي فم لفم لمخرجه بيرن رونكه موليد ١٩٦١ . والفيلم الألماني سعيدة كأحداهن للمخرجة فانيسا جوب مواليد١٩٧١ والفيلم الأسباني الأميرة للمخرج فيرناندو ليون ارانو والفيلم الأيطالي على حافة الأنحدار للمخرج كيم روزي مواليد ١٩٦٩ والفيلم الروماني شرق بوخارست كومييليو بورمبوي مواليد ١٩٧٥ والفيلم النرويجي الرجل المزعج للمخرج ينس لاين مواليد ١٩٦٩ والفيلم اليوغسلافي غدا صباحا للمخرج أوليغ نوفكوفيج والفيلم الألماني حياة الآخرين للمخرج فلورين هينكل مواليد ١٩٧٣ والفيلم الفرنسي جارلي يقول للمخرجة نيكولا كارسيا من مواليد الجزائر والفيلم الأنكليزي بيير بوينت للمخرج أدريان شيركولد .

تستطيع الصور المتحركة أن تتحدى الجمهور حين تعجز الكلمات عن فعل ذلك . ويجعلنا الفيلم الجيد نرى مانعرفه بضوء جديد ويفتح اعيننا على تنوع عالمنا واختلافه والتقائه في النواحي الأنسانية على الرغم من التباين في التفكير والعقيدة والأنتماء . ان الفلم شريط لذاكرة انسانية شاملة تنطلق من محليتها الى العالمية ويفهمها الجميع من خلال لغة الصورة المرئية والمعالجة الدرامية الفنية التي يتميز بها الفنان المبدع في طرح ومعالجة حالة انسانية تميزه عن غيره .

ان التقليد السائد في المهرجانات السينمائية في الدول الأسكندنافية هو التركيز على النوعية والمستوى الفني العالي بعيدا عن استعراضية وكرنفالية هوليوود وتضييف النجوم الكبار بهدف الترويج التجاري والسياحي وغالبا ما تكون لها ميزانية متواضعة لا تسمح لها بدعوة وتضييف الفنانين المشاركة افلامهم في المهرجان رغم الوضع الأقتصادي الجيد لتلك البلدان . وتعتمد على جمهور السينما المتنوع والذواق الذي يدفعه فضوله لرؤية كل ماهو جديد ومختلف .

افتتح مهرجان كوبنهاكن الدولي الرابع للسينما فعالياته بأحدث فيلم للمخرج الدنماركي العالمي لارس فون تريه ( رئيس لكل شئ ) وهو فيلم يتميز بكوميديا ساخرة نفذه بتقنية متواضعة بإسلوب الدوكما اثاراستغراب المشاهدين والنقاد بسبب التناول السطحي في طرح موضوعته وهو المخرج المعروف بعمقه في التناول والمعالجة الفنية والحائز على السعفة الذهبية في مهرجان كان عن فيلمه الرقص في الظلام ورفض عدة عروض للعمل في هوليوود .

واختتم المهرجان احتفاليته يوم الثلاثاء الماضي بالفيلم الدانماركي الكلاسيكي المعروف ( الجوع ) للمخرج هنينك كارلسن الذي اخرجه عام ١٩٦٦ ونال حينها شهره عالمية واسعة وجرى منحه في حفل اختتام المهرجان جائزة البجعة الذهبية تقديرا لمجمل اعماله السينمائية .

وكانت مفاجأة المهرجان حصول الفيلم الروماني شرق بوخارست على بجعتين ذهبيتين الأولى لأفضل سيناريو والثانية كأفضل فيلم . وهو فيلم يعرض بسخرية ذكريات بعض المواطنين من خلال برنامج تلفزيوني حول احداث انتفاضة الشعب الروماني و الأطاحة بنظام شاوشيسكو وهو الآخر انتاج بسيط ومتواضع يفتقد الكثير من المواصفات الفيلمية المتعارف عليها. يبدو ان الطرح الكوميدي الساخر لحدث سياسي مهم هو الذي حفز لجنة التحكيم على منح الفيلم بجعتين ذهبيتين من بحيرة البجع الدنماركية .

كما أحتضن المخرج الأيطالي كيم روزي هو الآخر وبجدارة بجعتين ذهبيتين كأفضل مخرج وأفضل تصوير عن فيلمه على حافة الأنحدار كما حصل الممثل الألماني اولريك موهه على البجعة الذهبية كأفضل ممثل عن دوره في فيلم حياة الآخرين والممثلة الألمانية هايدرون بارثالوموس كأفضل ممثلة عن دورها في الفيلم الألماني سعيدة كأحداهن .

فيما اختفت الأفلام الأميركية في صالات الشوارع الخلفية بعيدا عن واجهات الضوء التي تعم دور العرض التي احتضنت الأفلام المشاركة في الدورة الرابعة لمهرجان كوبنهاكن الدولي للسينما .